الصناعة في الهند

لحضرة الراجه موربي منوهار

من المسلَّم به أن ليس في الدنيا شرٌّ محض . خذ مثلاً لذلك انقسام اهالي الهند الى طبقات فان علماء اللغات الشرقية قد ذكروا هذا الانقسام مستنكرين له لانهُ فصل البراهمة والحكّام عن عامّة الشعب الذين يتعاطون الصنائع المختلفة . ولا يُنكَر ان هذا الانقسام منع ظهور النوابغ العظام فلم يقم من عامّة الهنود رجل مثل ميخائيل انجلو ورافائيل . وان الصناع كانوا مستعبدين لرجال السيف ورجال القلم ولم يحاولوا كسر قيودهم ولا الاعتداء على قوانين صناعتهم . ولكن الدرجة السامية التي بلغها الهنود في الصناعة قبلما بزغت اشعة شمس العمران في ممالك الارض ادهشت جميع الناس في كل الاقطار حتّى تنافس بمصنوعاتهم الخليفة هرون الرشيد واعجب بها الملك شارلمان وامراؤهُ

وقد قيل انهُ لو كان لصناع الهنود ما يحرّضهم على اكتساب النبوغ والمجد لزادت صنائعهم اتقانًا وارتقاء ولرأينا منهم مكتشفات جمة آلية وبحرية وصناعية . الآن انقسام اهالي الهند الى طبقات واستقلال طبقة الصنّاع بنفسها هو الذي اوجد المهارة التي نراها فيهم . وانفصال الكهنة عنهم مئة قرون كثيرة واضطرارهم الى الخضوع لهم جعلهم يرضون بحالتهم عن طيب نفس فانهم لما رأوا انهُ يستحيل عليهم ان يرتقوا من طبقة الى طبقة اعلى رضخوا لحكم الضرورة معتقدين انها قضاء الهيٌّ ولم يزل هذا الاعتقاد شائعًا الى يومنا هذا

ومرادي في هذه السطور الوجيزة ان ابين تقدُّم الهنود القدماء في الصناعة . فانهُ قد كثر طلب الناس للعلوم الصناعية وحسبانها علاجًا لما يخشى على الهند من زيادة عدد سكانها ولذلك رأيت ان البحث عن تاريخ الصناعة في البلاد ليس في غير محلهِ

من المعلوم ان الهند بلاد زراعية وان الآريين الذين اجتاحوها منذ اربعة آلاف سنة واستوطنوها كانت صناعتهم الفلاحة فلما نشأت ممالك مغاذا وكُسالا وفوها على ضفاف نهر الكنك وانتشر رواق العمران وغزرت موارد الثروة مال الناس الى طلب الراحة والترف فوجدت الصنائع واندفع الناس الى اتقانها ودام الحال على هذا المنوال الى ان ظهر غوتاما بوذه (واضع الديانة البوذيّة) وعلّم بوجوب الحريّة والاخاء والمساواة ومن ايامهِ الى ايام الفتح الاسلامي ارتقت الصنائع في بلاد الهند الى ان بلغت اوج مجدها

ثم نشبت الحروب الاهلية ولم يبقَ للناس امان على دمهم ومالهم وعرضهم وتناقصت الخطوب

باحتياج الغزاة لبلاد الهند فديست حقوق الهنود وقنط الصنّاع من العود الى مقامهم الاول فأُهملت الصناعة تمامًا وانقطع الناس الى الفلاحة

ومنذ مئة سنة كان في البلاد من الشرور والويلات ما يمنع زيادة السكان مثل القحط والوباء والحرب واللصوص والضواري والغزاة. ولكن الحكومة الانكليزيّة قد ازالتها كلها فاخذ عدد السكان بالازدياد الاّ ان الزراعة لم تزد تقدُّمًا كما زاد السكان عددًا حتّى قال السر وليم هنتر ان اربعة وعشرين مليونًا من اهالي الهند لا يشبعون الآن من الطعام. ولذلك كان ايجاد الطعام الكافي لاهالي الهند الذين يزيدون عددًا يومًا فيومًا من المسائل التي تستحق اهتمام الهيئة الحاكمة والهيئة المحكومة

وقد اشار البعض باساليب مختلفة علاجًا لهذا الامر منها مهاجرة الناس الى بلاد قليلة السكان ومنها نشر العلوم الصناعية. اما الاسلوب الاوّل ففائدته وقتية لان البلاد القليلة السكان تزدحم حالاً فنرجع الى حيث ابتدأنا. واما الاسلوب الثاني فقد حكمت حكومة الهند انهُ لا يحسن الآن ان تنشأ في الهند مدارس صناعية (تكنيك) مثل المدارس الاوربية لئلاّ يكثر عدد المتعلمين الذين لا عمل لهم ولذلك فالعلاج الوحيد هو ان تحيا صنائع الهند القديمة ويعتمد على العمل بما في هذه البلاد من الكنوز المعدنية التي اشتهرت بها من قديم الزمان

ويظهر من الرغ ڤيدا (كتاب الهنود) ان الهنود القدماء كانوا ماهرين في الحياكة وكانوا يعرفون عمل المركبات والقوارب والمراكب وصناعة الذهب والفضة والحديد وغيرها من المعادن. ويظهر ممّا في هذا الكتاب من وصف الاسلحة والادوات الحربية والحلى الذهبية والآنية الحديديّة ان قدماء الهنود كانوا ماهرين في صناعة المعادن فقد ذكر فيهِ الخوذ الذهبية ومغافر الكتفين والذراعين والسيوف والنبوس والقسي والكنائن والسهام والسروج والقلائد والدروع والاساور والخلاخل والتيجان وهذه من الذهب وذُكر فيهِ ابراج الحديد وحصون الحجر والمباني المعمدة بالف عمود مما يدل على ان صناعة البناء كانت قد تقدمت تقدُّمًا عظيمًا

وتجد في الياجور فيدا الذي كتب قبل الميلاد باثني عشر قرنًا اسماء صناع المركبات والنجارين والخزّافين والجوهريّة والحرّاثين وصانعي السهام وصانعي الاقواس والدهانين والنقاشين والصباغين والدباغين وصانعي الشعر المستعار والصاغة الخ.

واذا قربنا من عصر التاريخ المسيحي وجدنا شهادة سفير اليونان ماغستس الذي ذهب الى بلاد الهند واقام في بلاط اعظم ملك من ملوكها من سنة ٣١٧ قبل المسيح الى سنة ٣١٢ وشاهد ما كان فيها من العمران. ويظهر مما كتبهُ في هذا الشان ان الصناعة كانت بالغة

اعلى درجات الاتقان فقد قال ان الهنود حاذقون في الصنائع كما ينتظر من اناس يستنشقون اطيب هواء ويشربون أنقى ماء . وقال عن الارض ان فيها معادن كثيرة من الذهب والفضة والنحاس والحديد . وصناعها يوشّون الثياب بالذهب والحجارة الكريمة وينسجون الثياب المعرّقة البديعة النسج ووصف ضروب الحلى والحلل التي توضع على الخيول والافيال وذكر آنية الذهب والفضة والنحاس والموائد والكراسي والعروش والكؤوس وقال ان اكثرها مرصّع بالحجارة الكريمة كالزمرد والياقوت . وقال ان حكومة الهند تهتم بامر الصناع اهتمامًا خاصًّا وتعفيهم من الضرائب وتفرض لهم الرواتب . وتقيم الحرّاس ليحرسوا مصنوعاتهم . ومن قلع عين صانع او قطع يدهُ عوقب بالقتل

ويؤيّد ذلك شهادة السياح الذين جاؤا بلاد الهند من بلاد الصين لكي ينقلوا كتب الديانة الهنديّة ' ديانة الرحمة والمحبة والحق والطهارة والدعة والصلاح ' واول سائح منهم فاهيان الذي جاء الهند في نحو سنة اربع مئة للميلاد ووصف ما فيها من القصور والهياكل وقال انها ليست من صنع البشر لما فيها من بديع الصناعة . ثم هون تسان الذي قال في وصف احد الهياكل ان جدرانهُ من حجارة مخرونة وخشب منقوش وذكر صنمًا من النحاس ارتفاعهُ مئة قدم . وعمودًا من الحجر صقيلاً كالمرآة ولامعًا كالجليد وذكر هيكلاً آخر وقال ان الصناعة قد أُفرغت فيهِ وان فيهِ تمثالاً لبوذه من الذهب والفضة مرصعًا بالجواهر والحجارة الكريمة

وبلغت صناعة البناء اوج مجدها في بلاد الهند بين سنة ٣٠٠ قبل الميلاد وسنة ١٠٠ بعدهُ وفي هذه المدة بنيت المباني الفخيمة ذات النقوش البديعة وما احسن ما قالهُ الدكتور فرغوسن في هذا المعنى وهو

ان صناعة النقش الهنديّة التي ظهرت قبل الميلاد بمئتين الى مئتين وخمسين سنة مبتكرة تمامًا لا اثر فيها لشيء اجنبي ولكنها وافية بالمراد على اسلوب لا مثيل لهُ . فصور الافيال والغزلان والحُمُر اشدُّ انطباقًا على اشكال هذه الحيوانات من كل الصور التي نقشها النقاشون في بقية البلدان وكذلك صور بعض الاشجار فانها محكمة الوضع والنقش . وصور البشر لا تنطبق على ما نعدهُ من شرائط الجمال ولكنها تنطبق على الحقيقة تمام الانطباق . واذا التفتنا الى جميع الصور والنقوش التي صنعت قبل ايام رافائيل لم نجدها اقرب الى الحقيقة من النقوش الهنديّة

وصناعة البناء الهنديّة ابتدأت حقيقة في نحو القرن الخامس للميلاد حينما اخذت الديانة البوذيّة بالتقهقر والديانة البرهمية بالتقدم فمال الصنّاع الى الزخرفة ولم يعودوا يكتفون بتمثيل الطبيعة في الصناعة ومن اشهر مباني تلك الايام هيكل بهوفنسورا الذي قال فيهِ

الدكتور فرغوسن " لقد يظن الاكثرون ان البناء الذي يزيد على هذا ثلاثة اضعاف يكون اوقع في النفس وارهب ولكنّ الهنود لم ينظروا الى ذلك من هذه الجهة بل حسبوا ان هياكلهم تصير اليق بسكن الاله اذا افرغوا كل ما في الوسع على اتقان كل جزء من اجزائها ولو عملوا فيهِ مدى الايام والاعوام فجاءت هياكلهم آية في الجمال "

ولم يشرع اهالي جنوبي الهند في بناء الهياكل الاّ حديثًا حينما تسلط المسلمون على شمالي الهند فبني هيكل طنجور وهو اقدمها في القرن الرابع عشر للميلاد ومن ثمّ الى الآن بنيت هياكل كثيرة بالغة الدرجة القصوى في الفخامة والجمال منها هيكل طنجور وشدمبرام و بارقاتي والقاعة البديعة القائمة على الف عمود وهيكل سيرنغام بابوابهِ الخمسة عشر المغطاة بالنقوش البديعة وهيكل مدورا العظيم وقاعتهُ البديعة النقش القائمة على الف عمود وهيكل رامسورام الذي طول اروقتهِ اربعة الآف قدم وهيكل كونجفرام العظيم بقاعتهِ القائمة على الف عمود . وقد قال الدكتور فرغوسن في وصف اروقة هيكل رامسورام «انهُ ليس بين كنائس اوربا ما طولهُ اكثر من خمس مئة قدم ولكن طول الرواق من أروقة هذا الهيكل سبع مئة قدم وهو يتصل باروقة أُخرى يبلغ طولها معًا اربعة آلاف قدم وكلها مبنية باصلب انواع الغرانيت ومنقوشة بابدع انواع النقوش »

وقال في وصف تماثيل الالهة التي في هيكل هولابد «ان بعض هذه التماثيل منقوش نقشًا طبيعيًّا بديعًا حتّى لا يمكن تمثيلهُ الاّ باخذ صورتهِ بالفوتوغرافيا لدقة صنعتهِ وهي من ابدع ما صنعتهُ يد صانع دثب حتّى في بلاد المشرق »

ومعلوم ان الدكتور فرغوسن قضى حياتهُ في البحث عن صناعة البناء والنقش وتفحص مباني الناس في كل الممالك وقولهُ شهادة قاطعة على ان الهنود بلغوا الشأوَ الابعد والقدح المُعلّى في هذه الصناعة . ولكن لما دالت دوَل الهند ابطل الناس بناء الهياكل ودالت دولة البناء والنقش

وقد اتقن الهنود صناعة التصوير في نحو القرن الخامس للميلاد ولم تزل صورهم في كهوف اجنتا من ابدع ما صنعهُ المصورون فعلى اوجه الرجال سيماء الطلاقة والنباهة والنساء رشيقات القد طلقات المحيا لا يرتاب الناظر اليهنّ انهنّ من غادات الهند

ويظهر من هذا البيان الوجيز ان الهنود لم يكونوا دون غيرهم في الصناعة ولكنّ توالي الكوارث عليهم صرفهم عنها اما الآن وقد ارتفعت الراية الانكليزيّة في ارجائهم فلا بدّ من ان يستردوا مجدهم السالف اذا عاونتهم الحكومة على ذلك